"عينا إلزا Les yeux d'Elsa":
منظر طبيعي في عيني امرأة

أوّلا- لويس أراغون:

وُلد لويس أراغون في باريس في الثّالث من أكتوبر، سنة 1897 م، في أسرة بورجوازية، وبدأ بدراسة الطّب، ثمّ أسّس مع "أندري بريتون" عام 1919 م مجلّة «أدب»، اشترك في الحركة الدّادية، قبل أن يلعب دورا في الحركة السّريالية Surréalisme التي نظر إليها على أنّها استخدام الصّورة المذهلة استخداما لا حدّ له.

وتدلّ قصائد أراغون الأولى على أنّه تأثّر برامبو ولوتريامون، وهما من الشّعراء الرّمزيّين.

نشر مجموعته الأولى عام 1920 م، وحملت عنوان «نار الفرح»؛ لكنّ أصالة أراغون، وابتكاره تأكّد أكثر ما تأكّد فيما نشره الكاتب من نثر وروايات مثل: «أنيسيه Anicet» عام 1921 م، و «مغامرات تيليماك Les aventures de Télémaque» عام 1923 م، و«فلاّح باريس Le Payson de Paris» عام 1926 م.

قام بزيارة الاتّحاد السّوفييتي، وتأثّر بمبادئ النّظام الاشتراكي هناك، ثمّ عاد ونشر كتابه «العينان والذّاكرة» عام 1954 م، واستوحى أشعارا كتبها في مجموعة تحمل عنوان «المعذَّب والمعذِّب » 1930 – 1931 م، و«أجراس بال» عام 1934، و «الأحياء الجميلة» عام 1936 م، و«مسافرو الإمبراطورية» عام 1942 م.

من أشهر رواياته «الشّيوعيون» (1949 – 1951 م) في ستّة مجلّدات. أحبّ أراغون "إلزا" حبّا جارفا، وأراد أن يكون الشّاعر الذي تغنّى بـ "إلزا" بالمعنى الكامل، فكان أوّلا (سراب إلزا)، (واقع إلزا)، (زواج السّراب والواقع)، وعنه نشأت أسطورة (إلزا).

كتب أراغون: (مجنون إلزا) و (عيون إلزا)، وكتب «مجنون إلزا» عام 1963 م، رحلة هولندا 1964 م، القصّة غير المكتملة، كما كتب قصيدة إلى بابلو نيرودا عام 1966 م.

توفّي سنة 1982م. [1]

ثانيا- عينا إلزا

في السّداسي الثّاني، تعرّض الطّلبة إلى قصيدة "عينا إلزا"، ووقفنا معا على ترجمة القصيدة أوّلا، مع التّعرّض لهنات التّرجمة من خلال ترجمة "عبد الوهّاب البيّاتي" للقصيدة، وقد دوّن الطّلبة تلك الهنات وتصحيحاتها؛ ثمّ وقفنا عند تجلّيات الرّمزية في القصيدة.

بإمكان الطّلبة الوقوف على تجلّيات السّريالية في القصيدة، انطلاقا ممّا رأيناه في تحليلنا في قاعة الدّرس، وبالاستعانة بما في الصّفحات الآتية:

لويس أراغون شاعر سرياليّ فرنسي، نشر خلال الحرب العالمية الثّانية، وفي سنوات الاحتلال ديوانه "عينا إلزا"؛ جميع قصائد الحب التي تضمّنها الدّيوان كانت مهداة إلى ربّة إلهامه، المرأة التي ألهمته تلك القصائد: الشّاعرة والكاتبة "إلزا تريولي Elsa Triolet". فخلال الرّباعيات العشر، من البحر الإسكندري، يصف "أراغون" المنظر الذي يرسمه لنفسه في عينيْ هذه المرأة.

ولكي نتمكّن من فهم هذا المنظر الرّمزي، علينا أن نبيّن بأنّ الأمر يتعلّق في البداية بمنظر متغيّر غير ثابت، قبل أن نعترف بأنّ المرأة قد تكون فرنسا ذاتها، وبذلك يمكننا قراءة هذه القصيدة على أنّها نصّ ملتزم.

ومن المقاطع التي تثبت أنّ المنظر الذي يظهر في عيني إلزا منظر متغيّر:

-المنظر الذي يظهر عبر عيني إلزا بداية، منظر متناقض: يتغيّر كما تتغيّر المناظر حسب الفصول،

انظر :

- سامية أسعد: الأدب الفرنسي المعاصر، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، د. ط، 1976 م، ص: 51 .

- موريس حنا شربل: موسوعة الشّعراء والأدباء الأجانب، جروس بيرس، طرابلس، لبنان، د. ط، كانون الأوّل 1996 ، ص: 15 .

- هيثم طلال: مشاهير العالم، دار الجيل، بيروت ، الجزء الثّاني، د. ط، د. ت ، ص: 19 .

إنّه يعكس الشّمس التي تمتصّ الضّوء بفعل المرآة (البيت 2)، ويمكن الضّياع فيه لفرط عمقه (البيت 4)، إنّه إذن منظر يتغيّر تماشيا وأحوال المرأة، تارة حزينة، حين تلمع دمعة داخل عينيها (البيت 10)، وطورا هي شبيهة بالسّماء الزّرقاء، وبحجر اللازورد (البيت 9)؛ ويبدو أنّ السّماء والمحيط يتّحدان أو يمتزج أحدهما بالآخر لكي يمنحاه مواصفات متغيّرة، فتبدو السّماء أحيانا هادئة مشمسة، مضيئة، ثم تصبح محيطا مضطربا. ترتبط هذه التّغيّرات بتغيّرات نفسية المرأة المحبوبة؛ ولكي يعدّد "أراغون" ذلك، فإنّه يلجأ إلى ترميز العناصر الطّبيعية التي تميّز الفصول.

وهكذا يصبح منظر السّماء –بعد المطر- عنصر مقارنة بين زرقة العيون وقوس قزح الذي يرافق عودة الشّمس، فيظهر على شكل "موشور الألوان" في البيت 14. وتجعلنا الإحالات الكثيرة إلى المطر، نشعر وكأنّ كارثة ما قد حلّت على المنظر الطّبيعي: وكأنّ قطرات النّدى تفتّح الأزهار البريّة.

أمّا المقاربة الثّانية للنّص، فتبدو شبيهة بإعداد تعليق أدبي، يتعلّق الأمر بالكشف عن بعض طرائق الكتابة بغية ربطها بتفسيرات. وهذه المرحلة عادة ما تكون سابقة لمرحلة كتابة التّعليق.

بداية، يمكننا أن نقف عند نمط من الكتابة، وهو أنّ الاستعارات قسّمت "عيني إلزا" وفق عنصريْن اثنين:

أوّلها- الألوان:

-زرقة العينين

-البحيرة (الشّطر الأول)

-السّماء (الشّطر الثّاني)

-الزّجاج كقول الشّاعر: (الزّجاج أكثر زرقة عند انكساره)

-الخزامي (الشّطر 8)

ويحيلنا اللّون الأزرق إلى اللازورد (الشّطر الثّالث)، الذي يرمز إلى المثالي الذي لا يمكن بلوغه. وفي الواقع، فإنّ الأزرق هو لون السّماء والبحر، وهو بعيد المنال، لأنّنا حين نأخذ بعضا من الماء أو بعضا من الهواء، فإنّ اللّون لا يكون ذاته. وكان هذا الموضوع هو الموضوع الأثير لدى الرّمزّين خلال القرن 19.

وثانيهما- البريق:

-النّجوم، الثّابتة (ملايين الأنجم) أو المتناثرة (الشّطر 8)

-الرّاديوم، ذلك المعدن الأبيض المشعّ الذي اكتشفته ماري كوري سنة 1898، ومنها الإشعاع (إشعاع أكسيد اليورانيوم).

-ثمّ البلدان المرادفة للثّروة (بيرو، غولكوند، الهند) وغولكوند هي مدينة هندية دُمّرت سنة 1687، وكانت تحوي كنزا خرافيا كما تقول الأساطير، المنارة (التي تلمع في أعماق البحار).

وأشير هنا إلى أنّ الاستعارات التي تركّز على اللّون الأزرق تتموقع جلّها في الجزء/القسم الأوّل من القصيدة، في حين أنّ الاستعارات التي تركّز على اللّمعان والبريق تتموقع في الجزء/القسم الثّاني من القصيدة.

وتتمّ عملية الانتقال من اللّون الأزرق إلى البريق من خلال البيت التّالي:

"وأزهار السّوسن التي يثقبها السّواد، أكثر زرقة من أن تعلن الحداد".

فالسّواد يستدعي الحداد، أي معاناة الاحتلال. ويمحو ذلك كلّه بريق العينين: إنّهما النّجوم التي يُهتدى بها في الظّلام.

أن ننشئ تعليقا أدبيا، معناه أن نكون حذرين حول الإحالات الموجودة في النّص. فهناك مقاربة أخرى سيكون من المفيد القيام بها بالموازاة مع البحث عن الاستعارات: هي حضور إحالات دينية.

الإشارات الدّينية:

-إشارة إلى الفردوس المفقود (جنّة آدم وحوّاء)، كما في قول أراغون: "أيتها الجنّة التي وجدتها مائة

مرّة، ثم أضعتها". وبما أنّ القصيدة مشفّرة، فإلزا هي "فرنسا"، ويحيلنا هذا البيت الشّعري على الحروب العديدة، وعلى الحربيْن العالميّتيْن خصوصا اللّتيْن عاصرهما الشّاعر.

-إشارة الملوك الحكماء (معجزة الملوك). حيث ترمز النّجمة التي قادت الملوك الحكماء إلى الموضع الذي وضعت فيه مريم المقدّسة طفلها المعجزة، إلى الأمل، ويمثّل الطّفل / المسيح المنقذ والمخلّص؛ وإلزا تدفع الشّاعر إلى أن يكتب، إلى أن يحارب من أجل فرنسا. وهنا يقارن "أراغون" في عبارة (معطف مريم معلّقا في الحظيرة)، بين إلزا ومريم أمّ المسيح؛ إذ كما أنجبت مريم مخلّصا للإنسانية، فقد خلقت إلزا مخلّصا لفرنسا، وهو الشّاعر.

أمّا عبارة (يا أمّ الآلام السّبعة)، فهي جزء من ترتيلة موجّهة عادة إلى مريم العذراء؛ والآلام السّبعة فتبدأ من لحظة ولادة السّيد المسيح إلى رؤيته وهو يُصلب. والصّلاة هنا صلاة لأجل فرنسا.

ويمكن للتّعليق الأدبي أن يُبنى أيضا انطلاقا من التّلميحات التي تشير إلى وجود موضوع آخر في هذه القصيدة. ويمكننا هنا أن ننطلق من فرضية أنّ القصيدة قصيدة حبّ، ويمكننا أن نقف بسهولة على العلامات الدّالة على ذلك في القصيدة، غير أنّه ينبغي الإشارة أيضا إلى أنّ هذا الحبّ العميق هو مصدر سعادة كبرى، كما أنّه مصدر تعاسة في الوقت ذاته.

الإشارات الدّالة على موضوع الحبّ / الفخ: يقول أراغون: "وقعت في شباك الشُّهُب"، و"مثلما يموت بحّار في عرض البحر في عزّ شهر أوت". فالإشارات تقول بأنّه غارق في هذا الحبّ، وأنّه عبد مقيّد بحبائله.

إشارة إلى ربّة الفنّ: (وسرّهما التّوأم)، هنا يقوم "أراغون" بالتّلاعب بالكلمات، ليقول بأنّ إلزا هي إلهة الفنّ التي تلهمه/ هي ربّة الفنّ الخاصّة به.

عادة ما يقودنا حضور حقول دلالية بسيطة، كعملية بسيطة في الكتابة، إلى مجالات تحليل مهمّة؛ فنلاحظ حضور الحقل الدّلالي للألم، فنستنتج أنّ لذلك أسبابا عدّة:

فنلاحظ هذه المعاناة الغرامية من خلال:

1-معاناة الشّاعر:

يستحضر أراغون معاناته الشّخصية، مثل مشاكله الزّوجية: "لا أعلم إن كنتِ تكذبين"، "هل تخفيان بروقا؟"، "حبّا عنيفا". وقد عرفت علاقة أراغون وإلزا أوقات صعبة، تتعلّق بوفاء إلزا على وجه الخصوص. وتبيّن هذه الأبيات خوف أراغون من الخيانة، ومن أن تتخلّى عنه إلزا.

2- المعاناة من الحرب:

كانت المعاناة من الحرب حاضرة بقوّة، مثلما يبيّنه الحقل الدّلالي: "الموت، اليائسين، الحزن، الدّموع، الانكسار، الآلام، السّيوف، البكاء، الحداد، التّعاسة، الأسف، الهيمنة، المؤلم، الموت، العنيفة، النّار، الحرق، الاشتعال...

وهناك نظام كامل من العلامات، علينا فكّ شيفراته:

-"في ظلّ الطّيور": يتعلّق الأمر باستحضار القنابل التي تلقي بها الطّائرات.

-"هادمو السّفن": ويقصد بهم النّازيّين الذين احتلّوا فرنسا.

-"تحطّم الكون، وانكسر": ويقصد بها أنّ الحرب كانت عالمية.

-"شهر ماي": إنّها إشارة إلى شهر ماي 1940، وبالتّالي إلى استسلام فرنسا.

3- اليأس النّاتج عن الاحتلال:

-تخيط، الانكسار، المثقوب، يثقب، الحظيرة، تحطّم.. استحضار لما انكسر.

-ليكن بطريقة جغرافية: حيث انقسمت فرنسا إلى نصفيْن: منطقة حرّة، ومنطقة محتلّة.

-أو بطريقة زمنية: من خلال الانتقال من الحرّية إلى الاحتلال.

-"سبعة سكاكين اخترقت موشور الألوان": ويعني به الآلام التي تكبّدتها فرنسا.

-معاناة الشّاعر: إلزا هي ملهمته، هي مصدر إبداعه. غير أنّ الأمر يتعلّق بكتابة تراجيدية: إنّها شهادة على الهزيمة. وبذلك، تكون "النّار المحرّمة"، دلالة على حظر الكلام عن الهزيمة، و"النّار" تعني موضوعا حارقا.

دراسة الرّموز:

قيم "إلزا" المختلفة:

إلزا كامرأة قليلة الحضور في القصيدة: لا نعرف عنها غير اسمها، ولون شعرها، ولون عينيها.

-إلزا كإلهة للفنّ: "شهر ماي من الكلمات"، أو "التّوأمان". ونجد ذلك أيضا في العلاقة التي يقيمها "أراغون" مع الزّمن: "أفقد فيها ذاكرتي". فعندما يرى عيني إلزا، يفقد الانتماء إلى زمنه.

-إلزا: رمز فرنسا، إنّها قرينة "مريم المقدّسة" التي أنجبت المخلّص. إنّها تدفع أراغون إلى إنقاذ فرنسا.

-يتعلّق الأمر إذن بشعر عاطفي، غير أنّه ملتزم في الوقت نفسه.

والخلاصة:

أنّ هذه القصيدة تمثّل دليلا على حبّ أراغون لإلزا، ولكنّها بعيدا عن نظرة المرأة المعشوقة، وبعيدا عن النّشيد السّوداوي، فإنّها في الوقت نفسه شكوى موجّهة إلى فرنسا وشعبها الذي يعاني من ويلات الاحتلال. وقد تمكّن أراغون من كتابة هذه القصيدة ونشرها خلال الحرب؛ وتفسير ذلك، أنّ القصيدة لا يمكن فهمها إلاّ إذا امتلكنا مفاتيح فكّ شيفرات دلالاتها الرّمزية. وهكذا، فإنّه من المحتمل جدّا أنّ الكثير من الألمان لم يفهموا من هذه القصيدة إلاّ القليل، ولم يروا فيها غير لوحة عن حالة نفسية. تتّفق هذه القصيدة التي تتموضع في بداية الدّيوان مع آخر قصيدة فيه: "ترنيمة إلى إلزا" التي نجد فيها موضوع العينين اللّتين شُغف بهما أراغون للتّعبير عن رغبته في الاستمرار في المقاومة؛ كما تمهّد هذه القصيدة للخاتمة، بمعنى دور إلزا الثّلاثي: المرأة وإلهة الفنّ، وفرنسا؛ هذا الدّور الثّلاثي يؤيّده النّص الأخير، بل وحتّى البيت الأخير: "ليس لحبّي سوى اسم واحد".